اللغة العربية في عصر الامتزاج الاجتماعي في الأندلس

د. نافع محمود خلف
كلية الآداب – جامعة بغداد

مقدمـــة :

لم تعد الحاجة الملحة إلى معرفة ماضينا أمراً يقتصر على سرد الأحـــداث والتغني بالأمجاد ؛ بل أصبحت موضوعاً ملحاً للجيـــل العربـــي الـــذي يتصـــدى لمواطن الخلل في الوطن العربي ، وللقوى المعادية التي لا تنفك عـــن اســـتلاب دوره الحقيقي في التأريخ الإنساني ، واعاقة مسيرة نهضته المعاصرة ؛ لأن الجيل العربي يستشعر في كل لحظة من نضاله الحاجة لاكتشاف مكامن القـــوة والخـــير والإبداع في أمته ، وبعثها من جديد كي يواجه حاضرة ومستقبله بإيمان مطلق .

لقد حقق العرب بإرادتهم وإيمانهم الروحي شروط انتقال المجتمع العربـــي من مساحة جغرافية إلى تأريخ ومسيرة حضارية ، وطاقة مبدعة متصاعدة أفاضوا بمنافعها على الأمم الأخرى .

وهم عندما انتشروا خارج حدود الجزيرة العربية ؛ فقد انتشـــروا بقلـــوب مفتوحة عامرة برسالة الإسلام ، وعقول متفتحة ، ونفوس تتطلـــع إلـــى اســـمى الأهداف . تلك كانت القاعدة الأساسية لانطلاقة العرب الحضارية ، فلم يبق جانب من جوانب الحياة العربية لم تتألق فيه العبقرية العربية ، ولم يتجل فيه سمو القيـــم الإسلامية .

ونقف أمام الأندلس متأملين تاريخها ، متفحصين شواخصها ، فـــإذا هـــي محطة من أهم المحطات في التاريخ العربي الاسلامي ، وأكثرها أهمية واثـــارة ؛ لما فيها من تألق وعطاء ، وما فيها من دروس وعبر ، وما زالت الذكريات تثـــير في قلوب ابناء العروبة والاسلام مشاعر اللوعة والحنين إلى ذلك الوطـــن الـــذي اصبح حداً فاصلاً بين حضارتين : الحضارة العربية الإسلامية فـــي أوج تألقـــها

وعطائها ، والحضارة الغربية في أوج ضياعها وتخلفها وما مقولة الكاتب الفرنسي (توفيل جوتيية) : "إن حدود أوربا تنتهي عند جبال البرانس"[١] إلاّ تأكيد لرسم هذا الحد ، وتقرير حقيقة ، هي ان تاريخ أسبانيا يختلف كثيراً عن تأريخ غرب أوربا ، إذ اصبح لأسبانيا نكهتها الخاصة – فكرياً وحضارياً – ميزتها عن باقي دول أوربا المختلفة ، وهذه النكهة المتألقة لم تكسبها أسبانيا إلاّ بفعل الحضارة العربية الإسلامية التي قاد حركتها العرب ، ويكفينا ان نذكر نصاً من خطاب ملك أسبانيا حيث قال : "إن دمشق تلك المدينة التي عرفت ازدهار الخلافة الأموية وغادرها احد أفرادها إلى أقاصي الغرب ليؤسس في مدينة قرطبة الساحرة ... أهم مركز سياسي وثقافي في العصر الوسيط"[٢] . ومثل هذه الشهادة التي تأتي من أعلى موقع للمسؤولية في أسبانيا اليوم ، تكفي أن تكون وثيقة تاريخية على فصل العرب على الغرب ولم يكتف ملك أسبانيا بإعلان إعجابه بعبد الرحمن الداخل كقائد سياسي وحسب وانما عبر عن إعجابه بتلك الكوكبة من العلماء والمفكرين العرب الذين أفاضوا على أسبانيا بعصارة عقولهم . حيث نسمعه يعلن عن ذلك الإعجاب بقوله : "إن مجموعة من الدلالات شبه الأسطورية من ماض له حضارة لا تتجسد في أي مكان بمثل ما تتجسد به في هذه الآثار الموغلة في القدم التي تحتضننا الآن، وهي آثار ترتبط بأسماء لامعة كأبن رشد ، وأبي القاسم الزهراوي ، وأبن حزم ، وابن زيدون ، أنها أسماء لامعة يفتخر بها العرب والأسبان على حد سواء"[٣] .

وهذا الشاعر الأسباني فرانسسكو يعترف بفضل العرب على أبناء قومه، فيقول : "لو نزعنا بعض الكلس عن جدران جل كنائسنا ، لألفينا تحته لمعاً مذهباً لأسم الله الأقدس محفور بحروف كوفية ، ولو خدشنا بالأظافر بشرتنا الأوربية الصفراء لبرز لنا من تحتها لون بشرة العرب السمراء" ويستطرد هذا الشاعر قائلاً: "إن قوميتنا الغربية هي العرض الظاهر ، أما القومية الشرقية فهي حقيقتنا الخالدة"[٤] .

إن هذه الاعترافات الغربية بفضل العرب تعكس بوضوح الإرادة العربية وقدرتها التنفيذية في الأداء والإبداع ، وهذا ما يجعل فتح أسبانيا بحد ذاته معجزة توحي إلى أجيالنا الحديثة من قوة الإرادة العربية ، وصلابة تصميمها ، ودقة خططها ، وبراعة تنفيذها ، استطاعت ان تسبغ شخصيتها العربية وفكرها الإسلامي على أسبانيا على نحو ما نلمس ذلك في قول جوستوف لومون : "استطاع العرب أن يحولوا أسبانيا مادياً وثقافياً في بضعة قرون ، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية ، ولم يقتصر تحويل العرب لأسبانيا على ذينك الأمرين ، بل أثروا في أخلاق الناس أيضا .. وقل حاولوا ان يعلموهم التسامح الذي هو أثمن ما تصبوا اليه الإنسانية"(٥) .

ومثل هذه الاعترافات الغربية لم تجيء اعتباطاً ، ولكنها جاءت من منطلقات واقعية لمسوها بكل وضوح . فالعرب المسلمون نجحوا في تشكيل المجتمع الأسباني الجديد على وفق آرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم ، واستطاعوا ان يخضعوا نظمه ومقاييسه لنظمهم ومقاييسهم ، وأن يصوغوه صياغة جديدة ، ويحدثوا انقلاباً هائلاً في النواحي الفكرية والعمرانية . ويستبدلوا بتلك الامشاج التي كان يتكون منها المجتمع الأسباني مجتمعاً قوياً ، عربي الملامح والسمات ، ولعل من يمعن النظر في خصائص الفتوحات العربية الإسلامية يلاحظ خاصية فريدة ، هي "إن العرب لم يدخلوا بلداً من البلدان فاتحين إلا فتحوه لغوياً كما فتحوه سياسياً وأبدلوه من لغته الأصلية لغتهم العربية ، وكان القرآن الكريم هو القبس الذي يضيء في أثناء هذا الصنيع إذ لقنوه الأمم المغلوبة ، وبثوا في أبنائها إعجابا لاحد له بأدبهم من شر ونثر سواء في ذلك من اعتنقوا دينهم الإسلامي ، ومن ظل على دينهم القديم"(٦) .

وتشير المصادر إلى ان كثيراً من الأسبان قد اعتنقوا الإسلام ، وافتتنوا بالثقافة العربية ، وتأثروا بها فكراً واسلوباً رغبة فهم في التعبير عن أحاسيسهم ، وما يدور في خلدهم بأسلوب عربي رشيق ، بل "أن بعضاً من الشباب المسيحيين من ذوي المواهب لا يعرفون إلا العربية ، وإلا كتابات العرب ، فكانوا يقرؤنها

ويدرسونها بحماس بالغ منتهاه – وتراهم – أنـــى وجـــدوا يذيعـــون تلـــك الآداب بإعجاب شديد"[٧] . وان بعضاً منهم ترجم التوراة إلى العربية . وهذا ما يشير إلى أن اللغة العربية أخضعت كل شيء لسلطانها في أسبانيا .

المبحث الأول
اللغة العربية في عصر الامتزاج الاجتماعي

مع الفتح العربي الإسلامي خرجت اللغة العربية تسير في ركابـــه ، ومـــع الانتصار في الفتوح أخذت اللغة العربية توطد أقدامها في البلاد المفتوحة ؛ لأنـــها لغة الفاتحين ، ولأنها لغة الدين الذي آمن به كثير من الأسبان وغيرهم ، ولأنـــها لغة الدواوين فأقبل على تعلمها كثير من الأسبان حتى بعض الذيـــن لـــم يدخلـــوا الإسلام ، لأنها أيضاً لغة العلم والأدب والحضارة .

ولم يكن هناك مثقف إسباني – بل قل أوربي – يريد أن تستتم له أســـباب الثقافة ، وأن تستكمل له جوانبها وأبعادها دون أن يتعلم العربية ، ويفهمها وينتعش بها .

ومع أن اللغة العربية انحسرت – فيما بعد – عن أسبانيا وعـــن صقليـــة ، وجنوب إيطاليا لكن هذا الانحسار لم يمنع تراثها الفاعل من أن يؤثر فـــي لغـــات كثيرة ، وآداب عديدة من آداب لغات سكان العالم . ويكفينا نظرة واحدة إلى لغـــات بعض الشعوب لنقف على ألفاظ عربية منتشرة فيها . بل أن كثيراً من هذه اللغـــات احتفظت بالخط العربي نفسه كما هو الحال في اللغة الفارسية واللغة الأردية . بـــل وفي اللهجة الأفغانية ولغة الملايو وفي يوغسلافية يعتمد المسلمون على الحـــروف العربية في كتابة اللغة العربية والتركية ، وكذلك الأمر عند مسلمي الفليبين الذيـــن يستخدمون الحروف العربية لتدوين لغتهم[٨] .

وكل ذلك يبدو أمراً غير غريب وشيجة الدين تربط هذه الشـــعوب بلغـــة القرآن . ولكن الأمر الذي يدعوا إلى الغرابة والإعجاب ان تفرض اللغة العربيـــة

كثيراً من مفرداتها على عديد من اللغات الأوربية ، وتظل موجودة فيها حتى هذه اللحظة التي نعيشها .

وأننا لواجدون المفردات العربية وافرة سخية في اللغة الأسبانية ، وحتى قيل إن "أول مظهر للتأثير العربي في الحياة اليومية الأسبانية يتجلى بوضوح في اللغة الأسبانية الحديثة .. وعلى الرغم من القوانين التي صدرت بتحريم استعمال الألفاظ العربية في الأسبانية ... لا يزال في اللغة الأسبانية اليوم أكثر من ١٧% من مفرداتها عربي الأصل ، وهذا يشكل أكثر من أربعة آلاف كلمة"(٩) .

إن هذا الأمر ليس فيه غلو ، فقد ثبت ذلك بما لايدع مجالاً للشك وآيته ذلك القاموس الذي ألفه المستشرقان Engleman و Dozy ، بعنوان "معجم المفردات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية"

"Glossaire de mots Espagnols et portogals de L'Arabe"

وكذلك قيل "إن الفرنسيين أخذوا سبعمئة كلمة من العربية وأدخلوها معاجمهم(١٠) . وهذه حقيقة لا تحتمل الشك لأن المستشرق Lammens قد أولى هذا الأمر أهمية حين كتب بحثه "ملاحظات على الألفاظ الفرنسية المشتقة عن العربية".

ومجمل القول إننا لانكاد نجد لغة أوربية الاّ واقتبست من الألفاظ العربية بنصيب . مثل الأيطالية والألمانية ، والهولندية ، والأسكندنافية ، والروسية والبولندية"(١١) .

هكذا هي اللغة العربية ، وهكذا قدرتها في التأثير في لغات العالم ، غير أنها واجهت في تاريخها منذ نهاية القرن الثاني الهجري عصراً ثقافياً اتسم بالغريب الدخيل من المعرفة ، وتعرضت في أسبانيا لعطيات لغوية واجتماعية متباينة ، لذلك كله ، وجد الفساد طريقه ، فتعددت اللغات كما تعددت اللهجات في الأندلس .

فالعرب الفاتحون ينتمون إلى قبائل متعددة ومختلفة ، ولغة حديثهم متفاوتة بعض الشيء ، وإن أجتمعوا جميعاً حول لغة القرآن ، وخاصة في كتاباتهم .

والفاتحون البربر أدخلوا – كذلك – لغتهم البربرية . لكن قدم عهدهم النسبي بالإسلام جعل اللغة العربية لديهم لغة الدين والكتابة ، فإذا كانوا يتحدثون فيما بينهم باللغة البربرية فقد كان تفاهمهم بالعربية مع اخوانهم العرب الفاتحين أمراً طبيعياً . وكان منهم من يجيد العربية ويمتلك ناصيتها ، تحدثاً ، وكتابة ، وأراني هنا أستشهد بالخطبة البليغة التي حث فيها طارق بن زياد أصحابه على الصمود والقتال وانتزاع النصر :

"أيها الناس أين المفسر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكن ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، وأعلموا أنكم في هذه الجزيرة أشبه من الأيتام في مأدبة اللئام ... ألخ[١٢] .

وطارق ، ليثي الأصل ، وقيل إنه بربري ، والرأي الغالب أنه بربري من نقرة[١٣] .

ومهما يكن من أمر فأن اللغة البربرية تلاشت في الأندلس لأنها لم تكن مكتوبة "وأن أحداً لم يعد يتكلم بها منذ القرن التاسع"[١٤] . "الا في نطاق بعض بلاطات ملوك الطوائف المنتمين إلى أصل بربري ، كبني زيري الصنهاجين بغرناطة"[١٥] .

أما السكان الأصليون ، فكانت لغتهم الخاصة بهم تلك اللغة التي كانت دارجة بينهم قبل الفتح العربي الإسلامي ، وهي التي سماها العرب عندما سمعوها "العجمية" أو "عجمية أهل الأندلس" و "اللطيفية" ، وهذه اللغة هي التي كان يحسنها أهل الذمة ، وكذلك السالمة كما ظل يحسنها أبناؤهم المولدون .

ولعل تحديد طبيعة هذه العامية أمر عسير ، ويبدو أنها أصبحت فيما بعد من اللهجات المتداولة في الأندلس . إن هذه الأعجمية لم تكن مفهومة لدى جميع العرب حتى مطلع القرن الثالث الهجري . وقد ذكر الخشني "أن القاضي سعيد بن سليمان (في زمن عبد الرحمن بن الحكم ٣٠٦-٣٣٨) قضى في المسجد إلى أن مضى صدر النهار ثم قام منصرفاً إلى داره . فلما همّ بدخول الدار فإذا برجل مقبلاً وأعوانه بين يديه وكان أعجمي اللسان ، فصاح على البعد بالأعجمية كلموا

القاضي يسمع ما أقوله : فقال القاضي : قولوا له بالأعجمية إن القاضي قد أدركته الملالة والسامة[١٦] .

مثل هذه الصورة الاجتماعية كانت تحدث يومياً في الأندلس ، فهذا قاضٍ يفصل بين الناس ، وكان من المنتظر ان يكون بين شهوده أناس ممن لا يحسن الا الأعجمية وكذلك بين المترافعين إليه مما يضطر إلى الاستعانة بمن يترجم له .

غير أن هذه الأعجمية – كما يبدو – أصبحت فيما بعد مفهومه لدى الأكثرية من الناس لا ، لأنها لهجة من لهجات التخاطب وإنما ظروف الحياة الاجتماعية اقتضت هذه الملاءمة بين عناصر المجتمع بحيث يفهم كل فريق لغة الفريق الآخر ، وخاصة ان ربة البيت في الأندلس لم تكن – في الغالب – عربية.

ولكن ينبغي ان لا يجعلنا هذا ننساق بعيداً عن رؤية الأمور على حقيقتها : فلا ينبغي أن نستنتج من ذلك أن المجتمع الأندلسي أصبح كله يفهم هذه اللهجة ويتكلم بها ، وإذا كانت بعض القبائل العربية أستوعبت هذه اللهجة فأننا لواجدون قبائلاً أخرى لم يحسن أبناؤها التكلم بها ، وعن ذلك يشير ابن حزم إلى قبيلة "داربلى" العربية ويقول إن أبناءها لا يحسنون الكلام بالأعجمية ، نساؤهم ورجالهم"[١٧] . إن هذا النص يجعلنا نقف على حقيقة هي أن رجال هذه القبيلة لم يتخذوا نساءهم من الأسبانيات ، لذلك ظلت العربية وحدها لساناً لهم .

وإذا كان ابناء قبيلة (داربلى) ظلوا محافظين على اللغة العربية فأن سكان "شلب" وقراها – وأكثرهم من عرب اليمن – ظلوا كذلك محافظين على اللغة العربية إلى عهود متأخرة[١٨] .

ويبدو أن لسان عرب الأندلس بدأ يستعجم وبدأ يبتعد عن اللغة العربية الفصيحة ، نتيجة توغل العرب في الحياة الأندلسية وتأثرهم بمعطيات البيئة الجديدة، وهكذا نشأت لهجة جديدة تحمل سمات لغة المتخاطبين وهي التي عرفت باللهجة العامية ، وكان يغلب على الفاظ هذه العامية الطابع العربي ، وأننا نلمس هذه اللهجة مجسدة في الموشحات والأزجال اللذين ذاع صيتهما ، وتوسع استعمالهما في الأندلس .

إن هذه العامية عرفت طريقها في المجتمع الأندلسي ، وأخذت تزاحم العربية الفصيحة وتحدثنا المصادر عن بعض خصائص العامية العربية ، فيشير ابن حزم ويقول :

إن العامية قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً هو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى فنجدهم يقولون في (العنب) (العَنيب) ، وفي (السوط) (سطوط) وفي (ثلاثة دنانير) (ثَلثدا) [١٩] .

وقال غيره : إنهم يقولون في (التين) تَينْ ، وفي (النوتي) نَوْتي وفي (القبيط) قبيد[٢٠] .

ولم تكن هذ اللهجة العامية على مستوى واحد في كل مناطق الأندلس ، فقد اختلفت هذه اللهجة من منطقة إلى أخرى ، فكان أهل شرق الأندلس يفتحون أول الكلمة من نحو (الحَوت) ، و (العَود) . وينطقون (التاء) طاءً ، ويلحقون آخر المصغر لاماً مشددة مفتوحة في المؤنث مضمومة في المذكر ، وهاء ساكنة (وهي أداة التصغير في اللاتينية) ، فيقولون :

حوت : (حوطلّة) في حالة التأنيث ، (وحوطلُّه) في حالة التذكير[٢١] .

وعلى الرغم من جنوح لغة التخاطب إلى العامية فإن الخلفاء ورجالات الدولة كانوا يقربون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم في إتقانها وأجادتها ويعملون على استجلاب الكتاب والشعراء إليهم .

ومما يسترعي الأنظار حقاً في الأندلس ان معظم أمرائها كانوا أدباء "فلو زعم أنه لم يتمم أحد من أمراء الأندلس وخلفائها إلى القرن الخامس الا وهو جامع أسباب الأدب لكان حقيقياً في زعمه بالتصديق[٢٢] . ويبدو ان البراعة في الشعر والبيان كانت من المرشحات العامة للملك والمناصب العالية ، وكان بعض الأمراء لا يستوزر وزيراً الا أن يكون أديباً شاعراً ، ويغنينا أن نذكر ذلك الاختبار الذي أجراه عبد الرحمن الداخل لولدية ، (سليمان وهشام) ليكتشف به من هو أهل لاستخلافه فقال يوماً لهشام لمن هذا الشعر :

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ومن خاله او من يزيد ومن حجر
سماحة ذا مع برذا ووفاء ذا ونائل ذا إذ صحا وإذ سكر

فقال يا سيدي لأمرئ القيس ملك كندة وكأنه قال في الأمير أعزه الله فضمه إليه استحسانا مما سمع منه وامر له بإحسان وزاد في عينه .

ثم قال لابنه الكبير سليمان – على انفراد – لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين ، فقال : لعليما لأحد أجلاف العرب ، أمالي شغل غير حفظ اقوال بعض الأعراب ، فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية[٢٣] .

ويروي المقري في نفح الطيب من الأخبار ما يدل بصراحة على مدى اهتمام الحكام باللغة العربية ، واهتمامهم بالكتاب النابهين المالكين زمام العربية المتقدرين عليها ، كما يدلنا على احتقارهم لمن قلّ خطة منها ومن هنا كان تعلم العربية والتمكن منها وامتلاك ناصيتها ضرورة لمن يريد ان يصل إلى المركز الرسمية في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس .

المبحث الثاني
ملامح من تأثيرات العربية في اللغة الأسبانية

يقول "رنان" في كتابه "تاريخ اللغات السامية" : "ما عهدت قط فتوحاً اعظم من الفتوحات العربية ، ولا أشد سرعة منها ، فإن العربية ولا جدال قد عمت أجزاء كبرى من العالم : لم ينازعها الشرف في كونها لغة عامة أو لسان فكر ديني او سياسي إلا لغتان ، اللاتينية واليونانية ، ثم يتساءل رنان قائلاً : وأين مجال هاتين اللغتين في السعة من الأقطار التي عم انتشار اللغة العربية فيها[٢٤] .

ولعل الذي فات رنان ، هو ان اللغة العربية لغة رسالة سامية . وحضارة إنسانية خالدة ، فهي لغة القرآن الكريم ، كتاب الله الخالد ، وهي أيضاً لغة اتسعت طاقاتها لكي تحمل وتستوعب أرقى حضارة شهدها التأريخ الإنساني .

إن من يتبع السياق التاريخي عند جميع الشعوب لا يستطيع أن يعثر على شبيه لتلك الظاهرة العجيبة التي لم تتكرر عبر التاريخ ، شعوب بأسرها وأقطار بمجموعها تترك لغاتها الاصلية التي عاشت تتكلم بها مئات السنين ، وتستبدل بها لغة جديدة في بضع عشرات من السنين ، إنه لأمر مدهش حقاً لمن تتبعوا سير اللغة العربية وانتشارها المكتسح الجارف ، وصاحب "تاريخ اللغات السامية" طالت حيرته ، وزادت دهشة مغلق على هذه الظاهرة بقوله : "إن انتشار اللغة العربية ليعتبر اغرب ما وقع في تاريخ البشر ، كما يعتبر من اصعب الأمور التي استعصى حلها ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء ، فبدت فجأة على غاية الكمال ، سلسة أي سلاسة غنية أي غنى ... فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول مرة أمرها تامة مستحكمة ولا أدري هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض قبل أن تدخل في أدوار أو أطوار مختلفة[٢٥] .

ولعل الأمر الذي يدعو – حقاً – إلى الإعجاب ليس وحده انتشار اللغة العربية كلغة للدواوين في عشرات قليلة من السنين . ولكنه أن تفرض هذه اللغة نفسها على أسباب الحضارة فتكون في أقل من قرنين من الزمان لغة الأدب والعلوم ، وتصبح لغة التأليف في علوم الدين والكيمياء ، والرياضيات ، والطب والفلك وغيرها من العلوم والآداب ، وأن تصبح مؤثرة في آداب الأمم الأخرى التي ارتبطت بها ، وإنه حتى بعد انحسار المد الحضاري للغة العربية عن أسبانيا بعد أن عاشت فيها أكثر من ثمانية قرون ظل تراث هذه اللغة فاعلاً مؤثراً في اللغة الأسبانية وما جاورها ، وظل الأدب الأسباني والأوربي بعامة يستمد من طاقات وإبداعات الآداب العربية ، ولقد مرّ بنا ان اللغات العالمية والآداب العالمية قد استفادت وتأثرت باللغة العربية وأدابها .

لقد اكتسحت اللغة العربية ، إسبانية ، وأكتسحت لغاتها المحلية ، وأزاحت اللغة اللاتينية ، بحيث لم يكد يمضي وقت طويل على الفتح العربي الإسلامي حتى كانت اللغة العربية اللغة الرسمية في جميع تلك الجزيرة الأوربية التي تم فتحها .

غير أن هذا لا يعني ان المجتمع الأندلسي بكل شرائحه وطبقاته قد تعرب وأخذ يتكلم اللغة العربية ، فلم تكن اللغة العربية الفصيحة هي اللغة الوحيدة المستعملة في الأندلس ، وإنما كانت هناك لهجات دارجة ، اتخذت كوسيلة للحديث العادي ، وهذه اللهجات دعت إنها ضرورات الحياة الأندلسية وموجبات نظمها .

وقد أثبت المستشرق الأسباني "خوليان ريبيرا" في بحث له حول هذا الموضوع "أنه كانت في إسبانية لغتان ادبيتان هما : اللغة العربية الفصيحة ، واللاتينية الفصيحة ، ولغتان عاميتان . العربية الدارجة ، واللاتينية الدارجة وهي التي تسمى (الرومانتي)" [٢٦] .

ويبدو أن اللاتينية الفصيحة قد تزحزحت أمام اللغة العربية الفصحية وضاق استعمالها وانحسرت ، واقتصرت على رجال الدين الإسبان كلغة طقوس دينية ، وبين المتعصبين من المسيحيين حتى أن الأسقف الفارو القرطبي أطلق شكواه وحسرته الحارة بسبب ما وصل اليه حال لغتهم فقال :

"وا أسفاه أين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ . إن المسيحيين نسوا لغتهم فلا تجد اليوم واحداً منهم بين كل ألف يكتب بها خطاباً لصديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن إسلوب ، وقد ينظمون بها شعراً يفوق ما ينظمه العرب أنفسهم في الأناقة والأداء[٢٧] .

ومع أننا لا نؤيد فيما ذهب اليه هذا المتعصب من أن الإسبان كانوا ينظمون شعراً عربياً يفوق ما كان ينظمه العرب أناقة وصحة أداء ، فأننا لا ينبغي أن نحمل قوله الذي يدل بكل وضوح تغلغل العربية في عقول ونفوس وقلوب الإسبان كما يدل على أن اللغة العربية هي لغة الطبقة المثقفة التي تذوقت اللغة العربية وآدابها بحيث أصبحت هذه اللغة الأثيرة لديهم المحببة إلى نفوسهم ، وأصبحت آدابها الغذاء الفكري والروحي للأسبان المثقفين .

وإذا كان هذا الحديث الذي ذكرنا يتخذ الإطار الشمولي دون التخصيص فأنه يجمل بنا أن نقف أمام الوثيقة الحية التي تصور مدى تغلغل العربية فيهم ،

هي تلك المخطوطة المشهورة المحفوظة في المكتبة الأهلية بمدينة مدريد وتشتمل على ترجمة القانون المقدس إلى العربية ، حررها في سنة (١٠٤٩م) القس "فسنسيو" وقد سمى نفسه فيها (بنجسيس) حيث يقول في ختام الجزء الثامن منها :

((أتممت وأكملت أنا بنجسيس القس الخاطئ عبد عبيد المسيح هذا الجزء الثامن من القانون المقدس يوم الأحد في الوقت الثامن من ذلك النهار ، وهو أول أحد من الصيام الأربعيني الذي يتلى فيه خبر المرأة السامرية التي أستسقاها سيدنا المسيح الماء في بئر يعقوب)) [٢٨] .

وهذا الشاعر الإسباني "فرنسيسكو" يقول : تفشت عدوى الإشتغال بالأدب العربي بين اساقفة النصارى ممن استعربوا ، فراحوا يقرضون الشعر بلغة عربية عالية ، وهو لعمري حدث وحيد من نوعه في التاريخ[٢٩] .

مثل هذه اللغة ، لابد وأن يكون من الأمور البديهية بالنسبة اليها أن يسمو أدبها ويرقى ، وأن يؤثر في الآخرين الذين ارتبطوا بها برباط الجوار أو رباط التلقي والتعلم والمعرفة التي تنشدها كل أمة تتطلع إلى السمو الحضاري .

وتبقى النصوص المتقدمة غير دليل على شيوع العربية بين الإسبان الذين كانوا يعيشون بين العرب ، ومن هنا ندرك سر تأثر اللغة الإسبانية باللغة العربية إلى اليوم في ألفاظها .

ولم تكن أسبانيا لتغفل عن هذه الحقيقة في أبحاثها بل أولت هذه العروبة اللغوية من العناية ما هو جدير بها منذ القرن العاشر الذي كان من ثمراته المعجم اللاتيني العربي Arabicum Glossariumlation[٣٠]. ولا يزال في اللغة الإسبانية اليوم أكثر من سبعة عشر بالمئة من مفرداتها عربي الأصل[٣١] . ويظهر وجه العروبة اللغوي في اسماء الانهار والمواضع والبقاع والبلاد ... فمن القرى والمدن "Almodour" المدور و "Albacete" البسيط و "Alcazer" القصر و "Calatrava" قلعة رباح و "Medinaclim" مدينة سالم و "Algarbe" الغرب و "Algueria" القرية و "Ruzafa" الرصافة و "Taiba" طيبة و "Zocodouer" سوق الدوار .

ويظهر وجه العروبة في اسماء الأنهار ، فمن الأنـــهار : Guadalqivir الوادي الكبير ، Guldaviar وادي الأبيار .

وما زالت في أسبانيا الفاظ تتصل بالري والزراعة ، من ذلك مثلاً :

Acaquia الساقية ، Azud و Albercas البرك ، ومن الفاظ الأزهـــار Arrayan الريحان ، Alhucama الخزامي ، Jazmine الياســمين ، Adelfas الدفلي ، Algodon القطن ، Tamarar ثمرة ، anoria النـــاعور ، Azucena السوسن[٣٢] .

ولم يقتصر التأثير العربي في اللغة الاسبانية على مفردات اللغة بل "تعـداه إلى تركيبات ، وتعابير لغوية كثيرة ترجمت حرفياً عن العربية لتعبر عـــن نفـس المعنى في الاسبانية . وقد قام الدكتور حكمت الأوسي بأحصاء وجمع هذه التعابير حيث بلغ عدد هذه التعابير أربعين تعبيراً ، ولعل الظاهرة في هـــذه التعـابير أن كثيراً منها ترجمة حرفية لأمثلة عامية متداوله في اللهجة العراقية ، منها مثلاً :

dayendoy levantando انكوم ونكع Tiene sietenidas comolos gatos عنده سبع ارواح مثل البزون[٣٣] .

ومن التأثيرات العربية القوية الواضحة في اللغة الاسبانية صـــوت الخـــاء والثاء . واللغة الإسبانية هي الوحيدة من اللغات اللاتينية التي فيها هذان الحرفان . ودخلت أداة التعريف العربية (أل) في كثير من الكلمات الإســـبانية ، وأصبحـت جزءاً منها[٣٤] .

وفي الأدب الأسباني تظهر التأثيرات العربية قوية بأجلى مظاهرهـــا فـــي الشكل والمضمون . ولعل أول من أشار إلى ذلك الأب الإسباني خوان أندريـــس (في القرن الثامن عشر) عندما ألف هذا الأب اليسوعي كتابـــاً بالإيطاليـــة ســماه "أصول الأدب عامة وتطوراته وحالته الراهنة" ثم ترجم إلى الإسبانية بعنوان :

Origen progresoy estado octual de toda la literatura .

وقد أشار خوان اندرسي في كتابه هذا إلى "ان الشعر العربي قد اثر في الشعر الاسباني الذي نشأ – اول أمره – تقليداً لشعر العرب .. وأن صور الشعر العربي وقوالبه كانت حرية بان تنتقل إلى بروفنسا عن طريق الصلات بين الفرنسيين والاسبان ، وتجوال الشعراء المنشدين المعروفين بالتروبادور . فنشأ الشعر البروفنسي على أساس من الشعر العربي ، ثم يقرر ، أن هذا الشعر البروفنسي انما ينتسب إلى العرب اكثر مما ينتسب إلى اليونان واللاتين[٣٥] .

ويظهر الاثر العربي واضحاً وقوياً في مواضيع مختلفة من كتاب "الحب الطيب" لخوان روين المعروف بـ (أرثيبرستي دي هيتا) [*] . فقد رسم الحروف العربية بحروف لاتينية بدقة لا تدع مجالاً للشك في أنه كان يفهم العربية بصورة جيدة[٣٦] .

أما الشعراء الذين استعملوا فن الزجل في أشعارهم فهم كثيرون ، منهم الراهب Diego de valencia ديكو البلنسي و Montoro مونتورو ومن الدواوين التي تحتوي على قطع من هذا الطراز نذكر ديواني الشاعرين :

Alvarez Gato الفاريث كاتو ، و Jimenez de uree خمينث دي اوربا[٣٧] .

ويؤكد ميندث بيلايو أنه ينبغي ان نسلم بأنه ، منذ القرن الرابع عشر على الأقل ، كان هناك تأثير عميق للموسيقى العربية بين المسيحيين الاسبان ... وأنه لمن الطبيعي ان تنتقل إلى الأغاني الإسبانية مع الآلات الموسيقية العربية ومع الألحان كلمات تلك الأغاني العربية التي تأثرت بها الموسيقى الإسبانية[٣٨] .

ولقد بقى الطراز الشعري الأندلسي الذي أخترعه مقدم بن معافى القبري (٢٢٥-٨٤٠ ، ٢٩٩-٩١٢) حياً بين الشعراء الاسبان حتى أواسط القرن السابع عشر على أقل تقدير[٣٩] .

وشيخ النقاد الأسبان مفندث بلايو يقرر أن "أول أديب صاحب اسلوب نثري من كتابنا في العصور الوسطى ، قد نهل وروى من موارد عربية ، هو (دون خوان مانويل) حيث تأثر تأثراً كبيراً بترجمات حنين بن اسحق ، كما تأثر بكليلة ودمنة ، والسندباد . ويظهر هذا التأثر واضحاً في كتابه المسمى (الكوندي لوكانور) [٤٠] .

وأثبت المستشرق الاسباني آسين بلاثيوس ان الكتاب المسمى (مجادلة الحمار للأب انسيلموري تورميدا) هو ترجمة حرفية لفقرات من مجادلة الحيوانات لنبي آدم الواردة في رسائل اخوان الصفا[٤١] .

وتظهر في الأدب الاسباني قبل نهاية القرن السابع عشر قصص كثيرة لاتدع مجالاً للشك في أن هناك علاقة قوية بينها وبين صورة من الصور التي كانت ذائعة من (الف ليلة وليلة) [٤٢] .

فالأمر – إذن – لم يكن غريباً بعد ذلك أن يتأثر الأدب الاوربي بعامة والأدب الاسباني بخاصة بالأدب العربي الذي عرف بنضارته وتألقه ، وفاضت فيه أسباب الحياة والخلود ، حتى قال فيه سيديو : "إن كثيراً من القصص التي عرفت في الأدب الأسباني حول الأعياد ، وصراع الثيران ، والتفاخر ، ورقص الفرسان ، والتشبيب والغزل . كل ذلك أثر عربي ، مما أشتهر به عرب الاندلس في أوربا"[٤٣] . ونتيجة هذا الأثر العميق ، فأن الكاتب الشهير سرفانتيس قد تأثر في قصته الشهيرة "دون كيخوت" بالثقافة العربية في الأندلس[٤٤] . هذه الثقافة التي أمتد تأثيرها إلى كثير من الثقافات العالمية التي كتبت بلغات شرقية وبلغات غربية.

إن أثر الأدب العربي في الأدب الأوربي أصبح حقيقة تأريخية ، تؤيدها السمات الواضحة التي أتسمت بها بعض فنون الأدب في أوربا اثناء حكم العرب للأندلس وبعده ، وليفي بروفنسال يصرح ، ويقول : لم يزل للأندلس في كل عصر مكانة عالية ... وهل يوجد في العالم من يجهل اليوم أسماء رجال الأندلس المشهورين مثل أبن زيدون ، أو المعتمد او أبن حزم[٤٥] .

هكذا هو تدر أدب العرب ، خالد في أبداعه ، وروعة لغته ، ولقد كتب له أن يكون مؤثراً في الآداب العالمية على النحو الذي ذكرنا فيما تقدم من صفحات، وانه لجدير بنا بمزيد من العناية الجادة ، فقد كان بشعره ونثره ينبوعاً عذباً أرتوى منه كبار المبدعين العالميين ، وقد كان بروضته العطرة وثماره النفرة غذاءً لكبار أعلام وأدباء آسيا وأوربا . فقدموا نتاجهم الخالد الذي فتن الدنيا . وخلب العقول ، عقول الملايين ، دون أن تعرف هذه الملايين أن المعين نبع عربي ، وفيض شرقي ، وليس أوربا .

الهوامش :

(١) المعتمد بن عباد : علي أدهم ، ص١٧٩ .

(٢) هذا نص من خطاب ملك أسبانيا الحالي (خوان كارلوس) ألقاه بتأريخ ١٩٩٢/١١/٤ في الحفل التأسيسي لمدينة الزهراء ، وبحضور الأمين العام لجامعة الدول العربية وسفراء الدول العربية والأجنبية المعتمدة في أسبانيا. ينظر: مجلة دراسات أندلسية : العدد التاسع لسنة ١٩٩٣ ، تونس ص٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦ .

(٤) الإسلام والحضارة العربية . محمد كرد علي ، ١/٢٣٤-٢٣٥ .

(٥) حضارة العرب : غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، ص٣٢٥ .

(٦) ابن زيدون ، الدكتور شوقي ضيف ، ص١١ .

(٧) قصة الأدب في الأندلس : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة ، ١/٢٢٥ .

(٨) الإسلام والحضارة العربية ، ١/١٨١ .

(٩) ينظر : فصول في الأدب الأندلسي : للدكتور حكمة الأوسي . وكذلك ينظر: مفردات أسبانية عربية الأصل ، للدكتور حكمة الأوسي ، والدكتورة بتول العلاف ص٣٦.

(١٠) الإسلام والحضارة العربية ١/١٧٩ ، وحضارة العرب ص٤٤١ .

(١١) الإسلام والحضارة العربية ١/١٧٨ .

(١٢) نفح الطيب ١/٣٤٨ .

(١٣) فصول في الأدب الأندلسي ص٢١ .

(١٤) الإسلام في المغرب والأندلس . ليفي بروفنسال ، ترجمة الدكتور محمد عبد العزيز ص١٦٩ .

(١٥) فجر الأندلس : الدكتور حسين مؤنس ، ص٣٩٥-٣٩٦ .

(١٦) قضاة قرطبة وعلماء أفريقية : لأبي عبد الله الخشني ، نشر السيد عزت العطار الحسيني ، ص٩٦ .

(١٧) جمهرة انساب العرب . لابن حزم ص٣٢ .

(١٨) الروض المعطار في خبر الاقطار : لأبي عبد الله الحميري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ص١٠٦ .

(١٩) الحركة اللغوية في الأندلس : البير حبيب مطلق ص٢١ .

(٢٠) الإحكام في أصول الأحكام : لأبن حزم ، تحقيق احمد محمد شاكر ص٣٢.

(٢١) بغية الوعاة : للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ٢٨٣/١ .

(٢٢) تأريخ آداب العرب ك مصطفى صادق الرافعي ٢٨٠/٣ .

(٢٣) نفح الطيب ٣٣٤/١ .

(٢٤) الإسلام والحضارة العربية ١٧٢/١-١٧٣ .

(٢٥) المصدر نفسه ١٧٣/١ .

(٢٦) فصول في الأدب الأندلسي ص٣٠.

(٢٧) تاريخ الفكر الأندلسي ، بالنثيا ، ترجمة د. حسين تونس ص٤٨٥-٤٨٦ .

(٢٨) الإسلام في أسبانيا : الدكتور لطيف عبد البديع ط٢ ص٢٩ .

(٢٩) الاسلام والحضارة العربية ٢٣٢/١ .

(٣٠) الاسلام في أسبانيا ص١٨٢ .

(٣١) فصول في الأدب الاندلسي ص١٤٧ .

(٣٢) للوقوف على مزيد من هذه الألفاظ ، ينظر الإسلام في أسبانيا ص١١٣٠-١١٤٠.

(٣٣) ينظر : فصول في الأدب الأندلسي ص١٨٨ .

(٣٤) ينظر : مفردات أسبانيا عربية الأصل ، الدكتور حكمة الأوسي ، والدكتورة بتول العلاف ، بغداد ، ١٩٦٢ ص٢٣ . فصول ص١٨٧ .

(٣٥) التأثير العربي في الثقافة الاسبانية . الدكتور حكمة الاوسي ، ص٣٦ .

(*) هو نائب الاسقف بناحية هيتا (منتصف القرن الرابع عشر) وهو أول شاعر غنائي كبير في الادب الاسباني . وأكبر شخصية شعرية في عصره ، ينظر : فصول في الأدب الاندلسي ص١٩٧ .

(٣٦) تأريخ الفكر الاندلسي ، بالنثيا ، ترجمة د. حسين تونس ، ص٦٢٥ .

(٣٧) فصول في الادب الاندلسي ص١٩٧ .

(٣٨) تأريخ الفكر الاندلسي ص٥٨٢ .

(٣٩) المصدر السابق ص٢٩ .

(٤٠) نفسه ، ص ٥٧٩ .

(٤١) نفسه ص ٥٨٥ .

(٤٢) فصول في الأدب الاندلسي ، ص ١٩٣ .

(٤٣) حضارة العرب ص٤٤٩ .

(٤٤) تراث الاسلام : مجموعة مقالات جمعها الفردجيوم ، ترجمة خطاب عطية ص١٤٨ .

(٤٥) سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتأريخها : ليفي بروفنسال ، ترجمة محمد عبد الهادي ص٢ .

مصادر البحث :

١ - ابن زيدون ، من سلسلة نوابغ الفكر العربي ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٣ .

٢ - الأحكام في أصول الأحكام ، لأبي محمد بن حزم ، تحقيق احمد محمد شاكر، طبعه القاهرة ، ج٨ ١٩٤٥ .

٣ - الاسلام في أسبانيا ، الدكتور لطفي عبد البديع ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩ .

٤ - الاسلام في المغرب والاندلس ، ليفي بروفنسال ، ترجمة الدكتور محمد عبد العزيز ومحمد صلاح حلمي ، مصر ١٩٥٦ .

٥ - الاسلام والحضارة العربية ، محمد كرد علي ، طبعة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ .

٦ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ١٩٦٤ .

٧ - التأثير العربي في الثقافة الاسبانية : الدكتور حكمة علي الأوسي ، دار الشؤون الثقافية ١٩٨٤ .

٨ - تأريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعي ، ط٣ ، القاهرة ١٩٥٤ .

٩ - تأريخ الفكر الاندلسي : لانخل كونثالث بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس القاهرة ، ١٩٥٥ .

١٠ - تراث الاسلام (مجموعة مقالات) جمعها الفردجيوم ، ترجمة خطاب عطية، القاهرة ، د.ت .

١١ - جمهرة انساب العرب لأبي محمد علي بن حزم . تحقيق عبد السلام هارون ط٣ ، دار المعارف ، مصر ١٩٧١ .

١٢ - الحركة اللغوية في الأندلس : البير حبيب مطلق ، بيروت ١٩٦٥ .

١٣ - حضارة العرب : غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ط٣ (د.ت) .

١٤ - الروض المعطار في خبر الاقطار : لأبي عبد الله محمد الحميري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

١٥ - سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتأريخها ، ليفي بروفنسال ، ترجمة محمد عبد الهادي ، القاهرة ١٩٥١ .

١٦ - فجر الاندلس : الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

١٧ - فصول في الأدب الأندلسي : الدكتور حكمة علي الأونسي ، ط٥ ، بغداد ١٩٨٧ .

١٨ - قصة الأدب في الأندلس : الدكتور محمد عبد المنعم حفاجة ، بيروت ١٩٦٣ .

١٩ - قضاة قرطبة وعلماء افريقية . أبو عبد الله الخشني ، نشر السيد عزت العطار الحسيني ، ١٣٧٣هـ .

٢٠ - مجلة دراسات اندلسية ، العدد التاسع لسنة ١٩٩٣ تونس .

٢١ - مفردات اسبانية عربية الاصل : الدكتور حكمة علي الأوسي ، والدكتورة بتول العلاف بغداد ١٩٦٢ .

٢٢ - نفح الطيب : للمقري الكلمساني : تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٨ .